

II. صدمة المستقبل الثانية : ملامح الموجة الرابعة



obeykandi.com

II. صدمة المستقبل الثانية : ملامح الموجة الرابعة

أولاً : الموجة الرابعة : إجتهادات سابقة :

عندما توصلت فى نقدى الخاص لمشروع توفلر إلى مفهوم «الموجة الرابعة» ، رجعت إلى واحد من أهم محفزاتها ... الإنترنت ، وسألت شبكة الشبكات العالمية عمن يكون قد تحدث عن الموجة الرابعة . ودهشت من رقم المواقع التى تحمل هذا المصطلح - أكثر من ثمانمائة ألف موقع !!! أغلب هذه المواقع لشركات تصف منتجاتها بذلك ، ومكاتب إستشارية وإعلانية ، ومواقع روحية وفنية ... إلخ . ومن بين مئات المواقع التى حرصت على استعراضها قدر الإستطاعة ، وجدت عدداً قليلاً جداً يعالج المفهوم . وهذا يكفى للاعتراف بأن هنالك من تعرض له من قبل فى تسعينيات القرن الماضى ، حتى وإن اختلفت المعالجة . كما يكفى للاعتراف بفضل الإنترنت فى معنى من الوقوع فى برائن التصور المراهق للإحساس بالسبق ، القائم على الجهل !! لا أنكر أن سبق - إذا كان موضوعياً وصادقاً - يعد مصدر سعادة لمن يحزره ، لكن نيوتن علمنا أننا لا نرى أبعد من سبقنا إلا لأننا نقف على أكتافهم . وإن كنت أستبقى «إمكانية» سبق فى المعالجة «الموضوعية» لمفهوم الموجة الرابعة ، ذاكرًا التحفظ «الصادق» فى عدم إستعراض الآلاف المؤلفة من المواقع ، التى قد تأتى موجة خامسة وسادسة قبل الإنهاء منها !!

وقبل الإسترسال فى معالجتنا الخاصة للموجة الرابعة ، أود أن استعرض ما يتعلق بالمفهوم العام فى المواقع المذكورة . إننى أؤكد هنا على المفهوم العام ، الذى ينظر إلى «الموجة الرابعة» باعتبارها التالية «للموجة الثالثة» التى عالجهما توفلر ، وما زال الحديث عنها يحتل أكثر من مليون وربع المليون موقع على الإنترنت كما ذكرنا . ف بجانب المفهوم العام ، هنالك المفاهيم الجزئية للموجة الرابعة فى مجالات عديدة : الديمقراطية ، الإرهاب ، الهجرة ، الحركات النسائية ، إدارة العمليات ، البنزس ، أجيال الذكاء الاصطناعى والصواريخ الذكية ... بل وتكوين الصخور !! إننى لا أقلل من هذه المفاهيم الجزئية ، بل اعتبرها تصب فى المفهوم العام ، سواء الذى تعرضت له المواقع القليلة

الأخرى، أو الذى نقدمه هنا إن استجابة هذه المجالات الجزئية وغيرها للآثار بعيدة المدى للتقدم العلمى والتكنولوجى كانت وراء التفاعل المتسلسل والتضخيم اللذين ولدا الموجة الرابعة .

إن من تعرضوا للمفهوم العام للموجة الرابعة أو المفهوم الخاص الذى يجرى تعميم خطابه ، ممن زرنا مواقعهم ، يمكن تصنيفهم وفقا لخطاباتهم الخاصة إلى ثلاثة فرق ، دون إدعاء الفرقة بينهم :

* الفريق الأول ، الذى يمثله مايكل باونز ، يتبنى مفهوم النهاية المحتومة لكل موجة تحقق أهدافها ، وتسلم القياد لغيرها . إن هذا الطرح هو الأكثر قربا من المفهوم العام الذى نعينه هنا ، بصرف النظر عن أوجه الإتفاق أو الاختلاف مع شروحه . فلا شك أن الحديث عن موجة قادمة يرتبط بفقدان سابقتها لقوة إندفاعها ، أو بتحقيقها لأهدافها ، وظهور متغيرات جديدة أفرزتها ، يمكن بتجمعها أن تشكل موجة جديدة فى حد ذاتها . وبناء على هذا الإطار المفهومى ، يمكن القول بأن الموجة الأولى (الزراعية) قد حققت أهدافها بتحقيق القدرة على توفير الغذاء ، بشكل لم يكن ممكنا فى ظل مجتمعات جمع الثمار والقمص . كما حققت الموجة الثانية (الصناعية) أهدافها أيضاً بتوفير وتنظيم وسائل الإنتاج ، وركبت بذلك على الموجة الأولى مؤدية إلى تقادمها . وهذا ما فعلته الموجة الثالثة (المعلومات والمعرفة) بدورها مع الموجة الثانية ، بما أحدثته من وفرة فى المعلومات وسبل توزيعها ، وما نجم عن ذلك من تغير نوعى فى حياة البشر . فماذا جرى بالنسبة للموجة الثالثة ؟ ذكر باونز ، فى مقال له بعنوان «الموجة الثالثة فى مواجهة الموجة الرابعة» ، أن وفرة المعلومات أدت إلى «حمل معلوماتى زائد» information overload جعلنا ندخل فى ما أسماه «العصر الافتراضى» virtual era ، عالم إفتراضى من المعلومات المنهمرة والمتدافعة بشكل يدير العقول التى أنتجتها. هذه فى رأيه الموجة الرابعة التى نواجهها ، وهى فكرة مجردة ذكية ، أشار إليها البعض دون إعطائها صفة الموجة . ولذلك هى تحتاج إلى الاستكمال «وتجسيد» ملامح هذه الموجة المجتمعية والثقافية بشكل عام .

* وهنال فريق آخر يتعامل مع الموجة الرابعة من منطلق إيكولوجى ، ويحاول

تقديم ما يسميه «الرؤية المعيارية للمستقبل» في ضوء اعتبار أن «الحمل الإيكولوجي» ecological load الذى نجم عن أنشطتنا (عبر الموجات السابقة ؟) يمثل الدافع الأعظم للتغير . يعبر عن هذا الرأى أوليفر ماركلى، فى مشروع شعاره : مستقبل «سفينة الفضاء الأرضية» : الموجة الرابعة . ورغم ما قد يراه البعض من أن تصور الموجة الرابعة ، من هذا المنطلق الإيكولوجي ، يعد تصوراً جزئياً محفوفاً فى بعض معالجاته بنبرة صارخة تصل أحيانا إلى درجة معاداة «التقدم» ، إلا أن الاتجاه إلى وضع كل الأنشطة البشرية فى إطار إيكولوجي وبيئي ، يعد إتجاهاً جديراً بالاحترام ، ولا يخلو من درجة كافية من العمومية ، باعتبارنا جزء من هذا النظام الإيكولوجي ، نتأثر به ونؤثر فيه بشكل محسوب علينا ، خصوصاً وأنه لا يتعلق بنا وحدنا ، بل وبالأجيال القادمة من حولنا . كما أنه لا يتعلق بمغامراتنا الأرضية وحدها ، ولكن بمغامراتنا الآخذة فى التزايد خارجها . إنه يتعلق بمدى وشكل مسؤوليتنا الأرضية والكونية معا !!! ومع قيمة هذا الطرح بشكل عام ، إلا أن «علمية» جوانبه المختلفة يجب أن تتعرض للنقد الموضوعي . وكنموذج لذلك ، نرى توم هوفمان فى دراسة للحصول على الماجستير فى الدراسات المستقبلية من جامعة هيوستن التى يعمل بها ماركلى نفسه ، تقدم بهذا النقد (كم من تلاميذنا يستطيع نقدنا دون مخاطرة ؟!) فبعد أن يؤكد انتقال ماركلى من «نموذج تكشف الاتجاهات» الأقل علمية إلى نماذج بناء السيناريوهات ، ويشير إلى عرضه لما يوجه من نقد لأفكاره بأمانة ، يوضح هوفمان ما يراه أهم نقطة ضعف عند ماركلى ، المتمثلة فى اعتماده على مفهوم «الوعى الكوكبي» glofal consciousness الذى لم ينضج بعد . هذا المفهوم كثيراً ما يقود أصحابه إلى تبني تصورات خيالية غير علمية ، تجعلهم يضمنون أفكارهم فى «نسق عقلي» غير قابل للظهور فى المستقبل القريب على الأقل . ويركز بعد ذلك على نقد ثلاثة مكونات فى ورقة ماركلى : بزوغ الموجة الرابعة ، الحمل الإيكولوجي كدافع أكبر للتغير ، وأهمية توضيح مسؤوليتنا البشرية ، كقضية مهيمنة فى الورقة .

وقبل التطرق للنقد ، من حق ماركلى أن نشير إلى بعض أفكاره عن الموجة الرابعة . فهو يرى أن المستقبل يحمل لنا تحديات كاسحة تستحق المواجهة : النمو السكاني ، التدهور البيئي ، الممارسات الشرسة للرأسمالية الغربية ، والتطبيقات المنهمرة للتكنولوجيات الجديدة . ثم يذكر ما يعده من «تكنولوجيات التمكين» enabling techmalagin فى مواجهة ذلك : حفظ الطاقة - الاستفادة من المواد الجديدة - الهندسة البيولوجية لاستعادة التوازن والإصحاح الإيكولوجى - توظيف رشيد للمعلوماتية والرقمنة digitalisation . ويعترف بأن البعض يفضل تصور الأرض ككائن حى ، وفقاً لفرضية «جايا» GAIA التى يدعو لها لفلوك ، مؤكداً أنها قادرة على تصحيح وتوفيق أوضاعها إذا ما ساعدناها على ذلك ، فى مقابل تصورها «كسفينة فضاء أرضية» كما تدعو إليه مجموعته .

ويرى هوفمان فى نقده أن اعتماد ماركلى على قيام الموجة الرابعة على أكتاف الطرح الشعبى لتوفر للموجة الثالثة والتغير المجتمعى الذى تحدته يقلل من علمية المفهوم ، ويجعله يعتمد فى النهاية على شطحات «الوعى الكوكبى» و«النسق العقلى» noetie paradigm التى لم تترسخ فى أرض الواقع بالقدر الكافى . ويشير هوفمان إلى مفهوم مواز تدفع إليه «نظرية ما بعد الحداثة» رغم عدم استكمال مقوماتها . ويصاحب ذلك الابتعاد عن «العلم النيوتنى» لصالح ميكانيكا الكم ونظرية الفوضى أو الشواش chaos theory ، مع الانحراف نحو الذاتية بدلاً من الموضوعية ، وظهور اتجاهات علم نفس الأعماق والروحانية الخلاقة ... إلخ . إن الحركة الإيكولوجية الحديثة ترتبط كثيراً بهذه المفاهيم ، مما قد يجعل «ما بعد الحداثة» معلماً للعصر الجديد . والحديث عن الإيكولوجيا يقودنا إلى نقد هوفمان لفكرة «الحمل الإيكولوجى» كدافع أكبر للتغير ، حيث يفضل ألا ينظر إليه كمتغير رئيسى ، ولكن كموحد ودامج لكل المتغيرات . ويتعرض هوفمان أخيراً للمبدأ المهيمن عند ماركلى الخاص بعدم النظر إلى الإنسان باعتباره سيد الأرض وما عليها ، والعمل على أنسنة المحيط الذى يعيش فيه ، بشكل يقترب من فكرة «جايا» المذكورة سابقاً . ويذكر آراء من يلح على عدم تهربنا من الواجب ، فالإنسان هو الكائن المسئول ، وعليه أن يجعل الأرض وما عليها موضوع

دراسته لفهم نظمها المعقدة ، دون أن نخدع أنفسنا بتهويمات لا عقلانية ، مهما كان نبيل مقصدها .

* والاتجاه الأخير ، الذى نعرضه بالنسبة للموجة الرابعة ، ينطلق من جزئية «البنزس» ليوجه خطاباً أخلاقياً عاماً بالنسبة لنشاط البشر وعلاقاتهم المتشابكة. ومع تكرار الخطاب الأخلاقى الموجه إلى البنزس (بلا طائل) ، شد انتباهنا كتاب ماينارد ومرتنز ، الذى جعل من «الموجة الرابعة» عنواناً له . وفى نفس الوقت ، شد انتباهنا أيضاً النقد الحديث لهذا الكتاب ، الذى قدمه بوب دييولد تحت عنوان «استعراض مفهوم الموجة الرابعة» . لقد ظهر كتاب ماينارد ومرتنز عام ١٩٩٣ ، وظهرت له طبعة شعبية عام ١٩٩٦ ، ولا أظنه قد لقي اهتماماً كافياً ، ربما لفقدان الثقة فى الخطاب الأخلاقى وجدواه . لقد دعى المؤلفان أصحاب «البنزس» وشركاتهم إلى قيادة الرحلة من الواقع إلى مستقبل أفضل ، تقوم فيه شركاتهم بضرب المثل للمؤسسات الأخرى فى المجتمع . إن عليهم لعب دور «مواطنى العالم» ، الذين يخدمون مجتمعاتهم المحلية والكوكبية معا ، مع الدعوة إلى المساواة الاقتصادية وإعادة تعريف الثروة ، والعمل على تحسين الظروف الصحية لموظفيهم وعائلاتهم ، باعتبارها قطاعاً كبيراً وهاماً فى كل مجتمع . إنهم مدعوون إلى تقديم نماذج طيبة للتنمية المستدامة ، وإلى أخذ دور الريادة فى الاستخدام الأمثل للتكنولوجيا ، مع الالتزام بتوفير فرص التعليم المستمر . إن المؤلفين «يحلمان» بشركات ومؤسسات مجتمعية يقودها رجال ونساء يستشعرون مسؤوليتهم نحو مستقبل الإنسان الحديث ، الذى سيعيش فى ظل هذه الموجة الرومانسية ، التى يمتزج فيها الخطاب الروحانى الأخلاقى بفكرة جايا .

وفى نقده لهذا «الخطاب البليغ» ، يشير بوب دييولد إلى كتابات ريفيكين وهلبرونر ودراكر ، التى تشير إلى «عصر ما بعد السوق» و«مجتمع ما بعد الرأسمالية» و«النظام العالمى الجديد» (وبالمناسبة ، ظهر كتاب حديث لجيرمى ريفيكين تحت عنوان «اقتصاد الهيدروجين» يشير إلى توظيف الطاقة فى لعبة الأمم والإنفراد بالقوة ، وهو يذكرنا بسيناريوهات الحروب فى عالم اليوم) . ويؤكد دييولد حيرة الخطاب الأخلاقى ، وتحديات التسارع التكنولوجى فى إحلال الجديد باستمرار ، ويدعو فى مواجهة ذلك إلى

الانتباه إلى أهمية الفكر المنظومي والتعليم المؤسس . كما يبشر بعودة الاهتمام بالفلسفة للتعامل برؤية جديدة مع المعطيات الجديدة للمعلوماتية والواقع الافتراضي التي تسود العالم . وكأنه بهذا كله يدعو إلى موجة رابعة أكثر عقلانية وعمقا ، لا تعتمد فقط على خطاب أخلاقي هش لا يستطيع التعامل مع ما في عالمنا من شراسة .

ثانياً: الموجة الرابعة : رؤية مختلفة :

بعد استعراض المفاهيم المطروحة للموجة الرابعة ، والاستفادة من جوانب قوتها وضعفها ، وانطلاقاً من الإقتناع بتقدم الموجة الثالثة ، الذي شرحه توفلر بوضوح جعل من السهل أن نطبقه عليها ، يحق للقارئ أن يتساءل : إذا كانت الشروح السابقة غير كافية ، أو وافية لتبناها ، فما هي ملامح الموجة الرابعة التي نتصورها ، وطبيعة صدمة المستقبل الجديدة التي تكمن وراءها ؟ وباختصار ، ما هي رؤيتنا المختلفة للموجة الرابعة ولصدمة المستقبل الثانية ؟ وهل يأتي الاختلاف من المفارقة والرفض ، أم من الاستيعاب والإضافة والتركيب والإدماج في صورة جديدة ؟ إن المعالجة ، التي أقدمها للإجابة على هذه الأسئلة ، لا تعدو أن تكون «تمرينا عقليا» أدعو القارئ إلى المشاركة فيه من خلال فعل «القراءة النقدية» .

إن مراجعة النماذج المحدودة ، التي أوردناها بالنسبة للتصورات المختلفة للموجة الرابعة ، تشير إلى عنصر مشترك : الحمل الزائد . فنموذج باونز يشير إلى «الحمل المعلوماتي» الزائد . ورغم الوفرة «المجهد» للمعلومات ، أو بسببها في بعض التحليلات الذكية ، انتهى الحال في عالم اليوم إلى الحديث عن الفجوة المعلوماتية information gap والانقسام الرقمي digital divide ، إن السياحة في الفضاء المعلوماتي للإنترنت تقدم لك الكثير ، إذا امتكلت المعرفة والقدرة الانتقائية عليها . والخريطة المعلوماتية للعالم توضح الفروق الحادة بين مختلف مناطقها . كما أن المتاح ، رغم كثرته وكرمه ، لا ينفي وجود القليل الأكثر الأهمية ، سواء المسعر (الذي لا تحصل عليه إلا بمقابل) أو المصنف classified (الذي لا تحصل عليه أبداً ، لأنه في نطاق المحظور) . والحصول على المعلومات لا يكفي في كثير من الأحيان للقدرة على توظيفها ، دون التعامل مع قوانين وقواعد الملكية الفكرية وبراءات الاختراع ، والتوقيع على الاتفاقيات المنظمة لذلك ، والتي يرى البعض فيها الكثير من الجور .

ناهيك عن أن المعلومات التي تستخدم في تكنولوجيايات مزدوجة الغرض dual - purpos technologies ، مع ملاحظة أن كل التكنولوجيايات الجديدة والبازغة ذات القيمة المضافة العالية (المعلوماتية - التكنولوجيا الحيوية - المواد الجديدة - الطاقة - الفضاء - أعماق البحار - بل والمخ والتكنولوجيايات البازغة التي تتعامل معه) تندرج تحت التكنولوجيايات مزدوجة الغرض (التي يمكن أن يستخدم الكثير من تطبيقاتها في السلم والحرب) - وتأتي في نهاية هذه الرحلة ، الشاقة بالنسبة لقطاعات كبيرة من البشر ، أهمية امتلاك القدرات العلمية والفنية وتنمية القدرات البشرية التي تستطيع توظيف المعلومات وتطبيقاتها في حل مشكلاتها . ورغم اعترافى بما في هذا الطرح من مذاق «عالم ثالثي» ، وانزعاج من شدة الفجوة والانقسام رغم الحمل المعلوماتي الزائد ، إلا أن له أبعاداً بشرية عامة لا تخطئها العين . إن إدارة العالم لا تعتمد على المعلومات (المعرفة) المتاحة فقط ، بل تعتمد بشكل أكبر على المسعر والمحظور (الأسرار التكنولوجية للشركات الكبرى ، والمعلومات العسكرية والمخابراتية على سبيل المثال) . وهنا ، لا يكفي أن نكرر مقولة أن «المعرفة قوة» ، دون أن نذكر أن حملها الزائد ، مع التفاوت الهائل في القدرة على توظيفها لصالح البعض ، يسمح بالتطرف في هذا التوظيف (غطسة القوة) . وممارسة هذه الغطسة يمكن أن تتم بعشرات الصور ، بدءاً بالتوصل إلى دواء هام والتحكم في سعره ، وانتهاءً بامتلاك سلاح فتاك جديد وعدم كبح جماح الرغبة في تجربته الحية ، مروراً بغطسة المنح والمنع والمعايير المزدوجة ، الذى يمارسها من يملكون على من لا يملكون .

وبالإضافة إلى هذا التحليل للحمل المعلوماتي ، نرى تضافره مع ما يشهده عالم الاتصالات من انفجار يجعل كلمة «ثورة» تبدو متواضعة في وصفه ، ونفضل عليها عبارة «الحمل الاتصالي» communication load الزائد ، إن هذا التضافر يزيد من تطرف ملامح «العصر الافتراضى» الذى ذكره باونز ، ومن حدة التناقضات التى تتفاعل فيه وتتضخم تأثيراتها على كافة أنشطة البشر . لقد مرت الرحلة من تبادل الرسائل بإشعال النار وقرع الطبول وإطلاق الحمام الزاجل ، إلى تبادل الرسائل عبر البريد الإلكتروني والتليفون المحمول ، مروراً بساعى البريد الذى نشكره مقدماً على توصيل

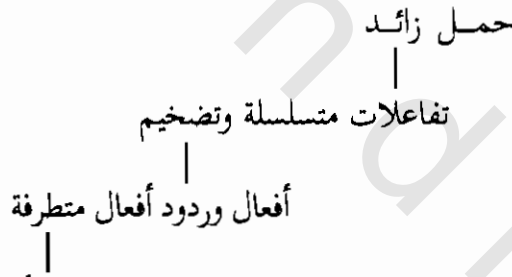
الرسائل التى يحملها على الدواب والاتصالات السلكية واللاسلكية مع استخدام الألياف الضوئية والأقمار الصناعية ، نقول لقد مرت هذه الرحلة بسرعة نسبية فى حياة البشر . إن من علماء الاجتماع من يرى أن تبادل نصوص الرسائل القصيرة عبر التليفون المحمول (النصنصة texting) ، الذى يتم مع التنقل المستمر دون حدود زمانية أو مكانية ، يمثل مرحلة جديدة فى تاريخ الإنسان ونشاطه . وباختصار ، أدى الحملان المعلوماتى والاتصالى معا إلى تغيير العالم . ورغم عدم اكتمال ملامح التغيير المتسارع ، الذى لم تستنفذ طاقته الهائلة بعد ، إلا أن هنالك الكثير من الآثار والتناقضات الواضحة للعيان . إن الشفافية التى تقدم كأحد الملامح الأخلاقية لهذا العصر ، تصاحبها تناقضات السرية وحدود الخصوصية . والمحاسبة التى تسمح بها الإتاحة المعلوماتية لا تمنع حالات الفساد الكبرى فى دوائر السياسة والمال ، بل والبحث العلمى وغير ذلك من الأنشطة (أعلن عن إفلاس ١٩١ شركة أمريكية، وأدينّت كبريات الشركات بالفساد والتضليل المعلوماتى) .

وإذا اكتفين بهذا التحليل «للحمل المعلوماتى» ، وانتقلنا إلى «الحمل الإيكولوجى» الذى قدمه ماركلى ، أو «الحمل الأخلاقى» الذى نستخلصه من طرح ماينارد ومرتنز ، يمكننا أن نتوصل إلى نتيجة مشابهة . فالمسؤول الأكبر عن استنفاد الموارد الطبيعية وتلوث البيئة يرفض المشاركة الجدية فى تحمل مسؤولية الإصحاح remedation البيئى والإيكولوجى (عدم التوقيع على اتفاقية كيوتو وفشل قمة جوهانسبرج عام ٢٠٠٢ ، يعدان نموذجان كاشفان لذلك) . فمنذ بداية عصر الفضاء ، ورؤية صورة كوكب الأرض ، الذى يمثل مسكننا الوحيد فى الكون حتى الآن ، رغم قيام أعداد قليلة منا بزيارة أماكن أخرى ، منذ بداية هذا العصر نتحدث عن «المستقبل المشترك» لهذه «القرية الكوكبية» أو «سفينة الفضاء الأرضية» . ورغم ما فى الحديث عن «المستقبل المشترك» من أبعاد عقلانية وأخلاقية رائعة ، إلا أن «الفكر» يجب أن يتوجه إلى «الفعل» . وهنا يبدأ تفاعل التناقضات ، المنطلقة من غطرسة القوة والمصالح الضيقة المتطرفة ، ويخفت الخطاب الأخلاقى رغم أهميته المستقبلية .

وهذا ينقلنا إلى تناقضات «الحمل الأخلاقى» وتفاعلاته . هل يكفى

الخطاب الأخلاقي لإصلاح أحوال «البنس» ؟ وهل يمكن للشرعية أن تمارس في ظل الإصرار على المعايير المزدوجة ؟ وهل تكفى الدعوة إلى السلام مع تهميش آلياته وسحب اختصاص المؤسسات المؤهلة لإقراره ؟ وهل يمكن أن يستفيد البشر من منجزات العلم والتكنولوجيا مع «الرسملة» الشرسة لتطبيقاتها ؟ وما مصير «التنوع البشرى الخلاق» الذى تحدث عنه اليونسكو أمام التفاوت فى القدرة التنافسية فى كل المجالات ، بما فى ذلك الإعلام ، وتصور «حق التدخل» فى تعليم أبناء الثقافات المختلفة ، حتى يصيروا مواطنين صالحين وديمقراطيين فى عالم يتطرف غيرهم فى فرض ملامحه والتدخل فى مصيره ؟ تحليل عالم ثالثى آخر ؟ نعم .. لكنه أيضاً تحليل بشرى يتفق عليه الكثير من عقلاء الشمال والجنوب ، ممن يزعجهم تناقضات «الحمل الأخلاقى» .

لقد أوردت التحليل السابق «للأحمال» المذكورة ، والذى ينطبق على أية أحمال أخرى نتصورها فى أوجه النشاط البشرى المختلفة ، لنصل فى النهاية إلى رؤيتنا الخاصة «للموجة الرابعة» ، التى يمكن أن يلخصها المخطط التالى :



ممارسات ، أغلبها مغلوطة ، لحق التدخل
ومع مراجعة ملامح الحضارة البازغة ، التى تقوم على سياسة الموجة الثالثة ، التى قدمها توفلر ، نرى الفارق الكبير بين «الموجة الثالثة» و«الموجة الرابعة» ، التى لا يصلح معها «التكيف» . إن المطلوب هو «المواجهة» البشرية العريضة ، للتعامل مع ما فى هذه الموجة الطاغية من فرص ومخاطر . إننى أدين لأصدقائى من التربويين ، الذين حذرونى كثيراً من التعامل الإيجابى مع مصطلح «التكيف» ، متأثراً فى ذلك «بنظرية التطور» . فالتكيف فى هذه النظرية يلعب دورين عبقرين ، فهو الوسيلة والنتيجة فى آن واحد . إننى أعترف أن بعض الأمور تستدعى المواجهة ، وإن كنت ما زلت مقتنعاً بأن

التكيف قد يكون متضمناً في العديد من أشكال المواجهة . وهذا هو الفارق بالنسبة لنظرية يمكن تعميمها على كل أشكال الكائنات الحية بما في ذلك الإنسان ، وبين خصوصية الإنسان ، التي تمكنه من المواجهة بالتكيف وبغيره . ورغم أملى الشديد في أن يكون الفارق واضحاً ، وإعترافى بأننى مسئول عما قد يكون ملتبساً فى شرحى له ، إلا أن الأمر قد يستدعى تفصيلاً أكبر «لفقه المواجهة» !! وهذا أمر يخرج عن حدود هذه الكراسة .

إن المخطط السابق يقودنا إلى قمة «الموجة الرابعة» ، التي حملها العنوان الفرعى للكراسة ، والتي ذكرتها فى مقدمتها . إن هذه القمة تتمثل - فى رأيى - فى الانتقال من ممارسة حق تدخل الإنسان فى الطبيعة ، إلى حق التدخل فى إنسانيته نفسها ، والدعوة إلى تجاوزها . ولا أعنى هنا التطرف الملحوظ فى التدخل فى ثقافته وأنشطته ، فلقد فصلنا ذلك فيما سبق . إننى أعنى التدخل فى طبيعته ، وصولاً إلى المستقبل ما بعد الإنسانى . ورغم عدم تأكدى من أن هذا هو خير ختام للكراسة ، إلا أنه «فرض كفاية» يوجب على البعض أن يمارس من خلاله المتابعة النقدية والإضافة الفكرية وتقديمهما لأبناء أمته . ولا أنكر عشقى لهذا الفرض ، وإصرارى على ممارسته !!